

أسلاف البربر

أطروحات أخلافهم

محمد المختار العرابوي

في نطاق الاحتفال بشهر التراث تم يوم ١٧ أبريل ١٩٩٤ عرض نقاش وصور ومواد خرفيه تبرز جوانب هامة من حضارة المنطقة في العصرين البوني والبربري القديم . كانت فعلا تعبيراً يجسد أصالة المنطقة وعراقتها التاريخية بعيداً، هذه المرة، عن "الرومنة" وتوجهاتها الطامسية لمآثر هذه المنطقة والحاجبة عن عمد، في حالات كثيرة، لحقيقتها الثقافية المتميزة، وإن عملاً مثل هذا له أهميته، اذ هو يأتي في نطاق المنحى التحرري من تأثيرات المدرسة التاريخية الاستعمارية، وتنشويهاها لتاريخ المنطقة. كما أن هذا وغيره من الجهود الفكرية والأبحاث العلمية سيساعد على إعادة النظر في الأطروحات الخاطئة في كتابة تاريخ المنطقة من منظور جديد. وهو ما يعد خطوة هامة لا في اكتشاف الأرومة الحضارية الحقيقية لهذه المنطقة. وإنما أيضاً لدعم توحدها واحباط النزعات الانقسامية والتوجهات الطائفية المشبوهة.

والمهم في هذا الصدد، التوقف عند كتاب صغير أصدره المعهد الوطني للتراث بمساهمة عدد من باحثيه بعنوان: أسلاف البربر - تضمن معلومات متنوعة قيمة عن المعتقدات والمقابر والكتابة والفخار والنقود والشعائر الجنائزية والتأثيرات المصرية والعلاقات بين اللوبيين وقرطاج.

ومن اللافت للنظر أن هذه الموضوعات كلها تتناول حياة اللوبيين القدامى من جوانب مختلفة. ومع ذلك جاء العنوان خالياً من اسمهم. كما أن تأليف العنوان على هذا النحو: أسلاف البربر - بدا غريباً وشاذاً إذ البربر ليسوا مجموعة واحدة يمكن أن نطلق على من سبقها "أسلاف". فكلمة "بربر" علم شاع إطلاقه على سكان شمال إفريقيا بمن فيهم من أطلقت عليهم تسمية اللوبيين. وبهذا كان العنوان مفتعلاً وملففاً مما يوحي بالريبة في عملية الانتقاد، وبتدخل النزعة الذاتية للاموضوعية في تقنين المادة العلمية وتصنيفها وهو ما يورث في النهاية التشويه والمعرفة الخاطئة.

والأمر هنا لا يقتصر على عنوان الكتاب وحده وإنما يشمل أساساً ما كتبه السيد محمد حسين فنطر، حول أصل السكان تحت عنوان: اللوبيون أسلاف البربر - وهذا أيضاً غير صحيح بل هو مخالف تماماً لما أصبحنا نعرف عن سكان المنطقة منذ الألف الثاني قبل الميلاد. وإذا كان اليونان ومن بعدهم الرومان يطلقون "اسم اللوبيين" على سكان شمال إفريقيا فلا يعني ذلك فعلاً أنهم كانوا يسمون بهذا الاسم أو أنهم لا يحملون أسماء تخصهم. ومن هنا وجب التحري مادام الأمر ممكناً وأن

❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

المعلومات الصحيحة والثابتة متوافرة. وإذا تساءل البعض عن اللوبيين من هم؟ وما سبب إطلاق تسميتهم على سكان شمال إفريقيا في تلك المرحلة التاريخية البعيدة؟ فالإجابة نجدها في السجلات المصرية وفي الوثائق المكتوبة "باليهروغلوفية". كان ذلك منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، في عهد الملك الفرعوني رمسيس الثاني (١٢٩٨-١٢٣٩ ق.م). من الأسرة التاسعة عشرة حيث وقعت الإشارة في مدوناته لأول مرة إلى "الليبو" وتوالى ذكر هذا الاسم في سجلات أخرى من أهمها "نقش الكرنك" للملك "مرنبتاح" حوالي ١٢٢٧ ق.م. من الأسرة التاسعة عشرة للدولة المصرية الحديثة الذي سجل فيه انتصاره على اللوبيين ومن تحالف معهم من "شعوب البحر" الذين هجموا على الدلتا للاستقرار بها تخلصاً من الصحراء ومن أية ضغوطات أخرى. قاد هذا التحالف الكبير "مرابي أو - مربي- ابن أدن" رئيس قبيلة "الليبو" وجاء في نص الكرنك^٢:

ومن قبائل المنطقة المشاركة في هذا التحالف: القهق والمشاوش. كما ورد اسم "الليبو" في نقوش رمسيس الثالث (١١٩٨-١١٦٦ ق.م) الذي ردّ هجمتين قويتين من الغرب على "الدلتا" كانت الأولى متكونة من قبائل المنطقة: الليبو والسبد والمشاوش بمؤازرة شعوب البحر الأروبية. ويشار لاسم "الليبو" في المصادر المصرية بالحرفين (ر-ب) ولذا قرأها البعض "الريبو" بالإبقاء على الراء دون إبدالها باللام وذلك راجع إلى عدم التفطن إلى "أن نظام الكتابة المصرية لا يعرف اللام" ٣ وأنّ الراء فيها كثيراً ما تنطق لهما ولذا فإن (ر-ب) تقرأ (ل-ب) أي ليو أو الليو. ورد اسم "الليبو" أيضاً في التوراة (العهد القديم) بهذه الصيغة "لوبي" و"لوبيم"^٤.

والوثائق المصرية كما ذكرت "الليبو" ذكرت أسماء أخرى مما يدل على أنها كانت تسمى الجماعات المجاورة لها من الغرب بأسمائها دون تعميم اسم واحد منها على البقية. ونظراً لأهمية المجموعة اللوبية، فإن المصادر المتعلقة بالتنظيم الإداري الفرعوني تحدّثت عن المديرية الثالثة من مديريات الوجه البحري وذكّرتها باسم "المديرية اللوبية"^١. وأشار سترابون^٢ (جغرافي يوناني توفي ٢٥م) إلى وجود مديرية بهذا الاسم قرب الدلتا، وهو ما تؤكد المصادر العربية بوضوح. فقال ابن عبد الحكم: "لوبيه ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء ولا ينالها النيل"^٣

وكرر ابن خرداذبة هذا أثناء حديثه عن إجلاء البربر من فلسطين فقال: "حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية فنقرقوا هناك"^٤

٢ - بازما مصطفى: تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ - منشورات الجامعة الليبية بنغازي ١٩٧٣ ج ١ ص ٥٦

٣ - ص ٢٢- rossler: der semitisch charakter liByschen, in z.a. so leipzig

٤ - وردت بصيغة "لوبي" من سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ١٢ الآية ٣ والإصحاح ٦ الآية ٨ وفي سفر دانيال الإصحاح ١١ الآية ٤٢ - ووردت بصيغة "لوبيم" في سفر ناحوم الإصحاح ٣٠ الآية ٥

١ - لبيون وإغريق من بركة... د. مصطفى كمال عبد العليم. ليبيا من التاريخ - منشورات الجامعة الليبية - بنغازي ١٤٦٨ ص ١٠١

٢ - المصدر نفسه ص ١٠١

٣ - فتوح إفريقيا والأندلس - دقة عبد الله أنيس الطباع - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٤ ص ٢٨

٤ - المسالك والممالك - ليند ١٨٨٩ - ص ١٩

والواضح من المعلومات المقدمة هو أن قبيلة "الليبو" من القبائل الكبرى المنتشرة -حسب رأي بعض المختصين، في المناطق الشرقية من ليبيا ١

أما إشاعة اسمهم وإطلاقه على سكان شمال إفريقيا فهو من صنع اليونانيين الذين تعود صلتهم بليبيا إلى القرن الثامن قبل الميلاد وقد أسسوا بها أولى مستوطناتهم (قورينه) من حدود ٦٣١ ق.م. ويبدو أنهم كانوا يطلقون هذا الاسم على مناطق سكناهم وتحركاتهم ثم أشيع بالتدرج على كامل المنطقة. ويقال إن "هيكثايوس" هو أول من عمم هذا الاسم. وتبعه "هيرودوتس" ومؤرخو اليونان وجغرافيوهم ٢.

وعن اليونان أخذ الرومان هذه التسمية المعممة. والذي جعل اليونان يعمونها هو المكانة البارزة التي تحظى بها قبيلة أو قبائل "الليبو" فقد كانت لها الزعامة والقيادة العسكرية على ما عداها من القبائل الأخرى وقادت حملتين على دلتا مصر. الأولى في عهد "مرنبتاح" والثانية في عهد رمسيس الثالث. هذا النفوذ جعل اسمها هو الغالب. مما سوغ لليونان تسميته على سائر منطقة شمال إفريقيا. وهو في هذا يشبه اسم "حمير" الذي أطلق على سائر اليمن في القديم مع أن الحميريين ليسوا إلا مجموعة من القبائل توصلت إلى الحكم قبل الميلاد بقليل.

فإطلاق اسم "الليبو" على كامل شمال إفريقيا وسكانه هو من قبيل إطلاق الجزء على الكل ومن هنا نعلم أن "الليبو" ليسوا أسلاف البربر كما يزعم السيد فنطر وإنما هم جزء منهم كانوا يقطنون كما تقدم في المناطق الشرقية من ليبيا.

نأتي الآن إلى ما قاله السيد فنطر حول "أصل السكان" وهو موضوع -كما نعلم- أصبح شائكا من جراء التعقيدات التي نسجت حوله والصراع السياسي والثقافي الذي بات يكتفه. وذلك بسبب التشويه وتحريف الحقائق الذي قامت به المدرسة التاريخية الاستعمارية منذ النصف الثاني من القرن الماضي متوخية في ذلك أساليب أكاديمية وطرقا من البحث والوصف لم تكن معهودة من قبل كان لها تأثير واسع في عقول الكثيرين فخلقت بأطروحاتها قناعات مسلما بصحتها شكلت الخلفية الثقافية لأصحاب التوجهات الإقليمية والنزعات الطائفية التي بدأت تفرخ في المنطقة. وعمل العلم ١١ - أري على تحطيم وحدة السكان بالمنطقة وبلبله عقول أفرادها وذلك كما قال أحدهم ببدخان. الاضطراب على مجرى أفكارهم وتحطيم أسس المعتقدات التي بها يؤمنون والقضاء على التقاليد والمفاهيم التي بها يتشبثون ٣

وهكذا فإن التحليلات العلمية المزعومة لم تزد مسألة "أصل السكان" إلا تعقيدا وإرباكاً. فماذا قدم لنا السيد فنطر في شأنها؟ ثلاث روايات الأولى لهيرودوتس مضمونها أن "المشوش": "يَدْعُونَ أَنَّهُمْ منحدرون من أصل طروادي" ٤ وهي كما يرى السيد فنطر تتسبب الأفارقة إلى أصول آسيوية.

١ - جون ولسن : الحضارة المصرية. ترجمة أحمد فخري. مكتبة النهضة المصرية سلسلة: ١٠٠٠ كتاب. علوم إنسانية ٥٧ القاهرة ١٩٥٥ ص ٤٠٥

٢ - د. مصطفى كمال عبد العليم: ليبون .. المصدر السابق ص ١٠٢

٣ - أورد هذا القول محمد الملي في مقاله: الجزائر والمسألة الثقافية مجلة "المستقبل العربي" عدد ٤٥ - بيروت ١٩٨٦ ص ٣٧

٤ - أسلاف البربر: المعهد الوطني للتراث - النص الفرنسي. أفريل ١٩٩٤ ص: ٨٠

هذه الرواية بقطع النظر عن الشك الموجه إليها كان يجب أن توضع ضمن الروايات الأخرى من عربية وبربرية، وأن يكون الموقف منها هو الموقف العلمي من الروايات الشفوية بصفة عامه. فلا ينبغي أن يكون هذا الموقف القبول أو الرفض الاعتباريين، وإنما يكون بوضعها في إطار ما وفرت المصادر الأخرى من آثار ووثائق، مكتوبة، وعلم أسماء، وعلم اللغة المقارن، وما يتعلق بالنظم والتقاليد والأعراف وغير ذلك من مختلف مصادر المعرفة. وهو ما يجعلنا نتبينها ونستفيد منها بوجه من الوجوه. "الرواية الشفوية من مصادر المعرفة التاريخية. وإن أولى خزائنها - كما قيل - أدمغة الرجال، ولا يمكن الاستغناء عنها في بعض المراحل من تطور المعرفة الإنسانية. فهناك حضارات متعدّدة كما في إفريقيا اعتمدت في الماضي على الكلمة والرواية الشفوية، وقد اتخذ المؤرخون من ذلك سبيلاً لدراسة الحضارات والتعرف عليها. والمعروف أن ذاكرة الشعوب قادرة على اختزان أشياء كثيرة من الماضي البعيد، وقد لاحظ البعض بناء على ما عرفوا من أحوال عدد من الشعوب أن الذين لا يكتبون هم أقوى ذاكرة" ٢

والسيد فنظر لا يفعل هذا. وهو وإن طاب خاطره لعرض الروايات الغربية، فإنه - بالنسبة للروايات العربية - من المعرضين عنها والرافضين لها رفضاً مسبقاً. وهو توجه بعيد تماماً عن الطرح الموضوعي لمثل هذه القضايا، يحكمه نوازع ذاتية وخلفيات فكرية معينة. والأمر هنا لا يقتصر على الروايات العربية وحدها وإنما يشمل أيضاً الروايات البربرية وما قاله نسابة من مختلف الطبقات في أصل شعوبهم. ويبدو أن هذا الإهمال أو هذا الموقف مرجعه إلى أن الروايات البربرية - كالعربية تماماً - تقرّ بالنسب الشرقي للبربر الشيء الذي يعدّ مرفوضاً من الأساس من قبل أصحاب هذا التوجه. ولا يمكن أن يكون هذا من الموضوعية والعلم في شيء.

والسيد فنظر بعد عرضه لتلك الروايات عاد من جديد إلى نقطة البداية وتساءل ثانية عن أصل البربر معلناً أنه "يجب الاعتراف بجهلنا على الفور وبلا أدنى تردد، فلسنا، في النهاية أكثر معرفة من سابقينا" ٣.

هذا الكلام وإن كان ينبئ بالدوران في حلقة مفرغة، إلا أنه لا يعني أن السيد فنظر استنفد كل ما في وقضته من معلومات عن البربر. فقد احتفظ لنا بعد ذلك العرض بما يمكن اعتباره من قبيل المفاجأة. إذ هناك ما هو ثابت لديه من العناصر في ملف القضية من شأنه أن يساهم في تحديد المجموعة البربرية وتمييزها كما في قوله: "إن اللغة البربرية لا تنتمي إلى عائلة اللغات السامية بدون شك" ٤!!

وهو هنا، بهذا القطع، يستبعد الأطروحات القائلة بالانتماء الشرقي للبربر. والتي على حدّ

١ - انظر تفاصيل هذه الروايات في: البربر عرب قدامى - فصل: المؤرخون المسلمون وأصل البربر - منشورات المجلس القومي للثقافة العربية روما ١٩٩٣ ص ٢٧٧

٢ - نص مقتطف من كتاب: البربر عرب قدامى - ٢٧٧ و ٢٧٨

٣ - أسلاف البربر: مصدر سابق ص ٧٦

٤ - المصدر نفسه: ص ٧٦

تعبيره "لا تصمد أمام علم اللغات"١

وهذا الحكم البات الذي أصدره السيد فنطر لا ندري كيف تأتى له والحال أنه ليس من العالمين باللغات السامية والبربرية ولا من المختصين بعلم اللغات المقارن. يضاف إلى هذا أن هناك أبحاثاً لغوية عديدة تفند تماماً زعمه. وتثبت بما لا يدع مجالاً للشك العلاقة المتينة بين اللغة البربرية وما سمي باللغات السامية. وهذا يعني أن السيد فنطر لم يكن مطلعاً على تلك الأبحاث وأنه استند في قوله السابق على ما كانت تروجه المدرسة الفرنسية من نظريات شتى حول أصل البربر. فقد صرح في أكثر من مناسبة أن البربر حاميون. وصمته هذه المرة عن إعادة ذلك قد يكون لجديد جدّ عنده، والمعروف أن المدرسة التاريخية الاستعمارية بعد أن سقطت نظرية الأصل الأوروبي للبربر بحثت عن نظرية جديدة تناسب أغراضها، وتكون في الوقت نفسه مرتكزة، في الظاهر، على أساس علمي يسهل ترويجها. فوجدت ضالتها في "النظرية الحامية" التي نشأت من ألمانيا وانطلقت إلى أوروبا ولم يلبث علماء اللسانيات الألمان أن تخلوا عنها لنقائصها ولما جدّ من جديد في ميدان البحث اللغوي المقارن. إلا أن المدرسة الفرنسية تمسكت بها منذ العشرينيات ومن أقطابها "دولافوس M.delaffosse" الذي وضع تصنيفاً سنة ١٩٢٣ في اللغات الإفريقية ومنها (الحامية) التي تشمل في نظره: البربرية والمصرية والكوشية. ونظراً لتقدم الأبحاث وما أثبتته من صلات لغوية بين "الحامية" و"السامية" فإن الباحثين صاروا يعدّونهما مجموعة واحدة ويطلقون عليهما معاً: "السامية-الحامية". لكن هذا أزعج المدرسة الفرنسية ذات التوجه الاستعماري التي رأت من المقولة الجديدة تأكيداً لأواصر القربى بين البربرية والسامية وخاصة العربية حتى إننا نجد الفرنسي "أ.موي a.meillet" يعلن في حزم "من المستحيل إرجاع السامية والبربرية إلى أصل واحد"٢

ونظر لفجاجة النظرية الحامية ونقائصها، فقد طعن فيها الباحثون من وجوه عدّة وخاصة أنها على العكس من المجموعات اللغوية الأخرى تفنّقر إلى الوحدة اللغوية الداخلية. ومما قاله "روسلر" في شأنها: "وفي الواقع أن"الوحدة" داخل الأسرة الحامية لم توجد أبداً"٣

وأدت الأبحاث في النهاية إلى إخراج المصرية من بوتقة الحامية في وقت مبكر. وانتقد "روسلر" المدرسة الفرنسية للبربريات وأساليبها المتوخاة فقال: "تجد أن هذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية للبربريات والتي اقترن اسمها بروني باسيه RenéBasset تترك عن عمد مسألة القرابات بين الساميات"٤

كما انتقد "موي Meillet" في رفضه السابق لإرجاع البربرية والسامية إلى أصل واحد فقال: "ونحن مع تقديرنا لهذا الحكم فإن مجرد التفكير في إرجاع السامية والبربرية إلى أصليين مختلفين غير معقول حتى ولو لم نتمكن إطلاقاً من البرهنة على انحدارهما من أصل واحد"٥.

والمشكل في نظر هذا الباحث يكمن في عدم مراعاة قرابة البربرية بالسامية وفي التجاهل

١ - المصدر نفسه: ص ٧٦

٢ - روسلر: مصدر سابق ص: ١٢٤

٣ - المصدر نفسه ص: ١٢٣

٤ - المصدر نفسه ص: ١٢٢

٥ - المصدر نفسه ص: ١٢٤

المتعمد لهذه القرابة، "حيث تمّ الاتفاق بكل بساطة على اعتبارها لغة حاميه، وهكذا أصبح حتى غير المختصين بالبربريات يسقطون أحكامهم المستخلصة من الحامية على اللوبية"^١

وبالطبع فإنّ المدرسة الفرنسية، على اختلاف نظر أقطابها لا يمكن أن تظلّ متجاهلة لهذه الطعون، وأنه لا مفرّ لها من تعديل موقفها على وجه من الوجوه. فكان هذه المرة على يد "مرسيل كوهين Marcel cohen"^٢ الذي رفض الجمع بين السامية والحامية في مجموعة واحدة. وزعم أنّ هناك أربع مجموعات لغوية هي: البربرية والمصرية والكوشية والسامية. وأنّ ما يجمع بينها من مشابهاة لغوية يرجع إلى أنها في الأساس متفرّعة عن أصل قديم مشترك. هكذا تمكن "كوهين" بفضل هذا التصنيف الجديد من إيجاد حل مناسب للإشكال القائم، فهو من ناحية لم ينف التّقارب بين البربرية والسامية ولكنه من ناحية أخرى جعل البربرية مجموعة متميزة مستقلة، وأنها والسامية فرعان ولا يمكن أن تكون إحداها تابعة للآخرى وأنّ انتماءهما معاً إلى أصل قديم مشترك لا يغير من الحقيقة في شيء.

بهذه الطريقة التأويلية تمّ فصل البربرية عن العربية وعزل إحداها عن الأخرى، وهو بيت القصيد. وقد غذت هذه النظرية التوجهات الطائفية للنزعة البربرية بالجزائر حتى إنّ سليم شاكر أحد المنظرين الطائفيين اعتمد عليها في مناظراته وتخيالاته اللغوية الفجة.

فالمدرسة الفرنسية من "لويس رين Louis Rinn"^٣ في القرن الماضي حتى الآن لم تتخلّ أبداً عن مخطّطها الهادف إلى عزل البربرية عن محيطها اللغوي الشرقي. وما زال هذا المسعى متواصلاً بأدوات فرنسية وغير فرنسية. لكن هذا كله لم يكن بوسعه حجب الحقائق الجديدة التي أكدت الطبيعة السامية للغة البربرية وعلى أنها ذات علاقة متينة بشقّيقاتها الساميات. وهو شيء في غاية الأهمية تمّ التوصل إليه من خلال أبحاث لغوية مختصة اعتمدت المقارنة في مجال الأصوات والنحو والتصريف والبنية الداخلية للمفردات والتراكيب والمعجم اللغوي وغير ذلك من أوجه التشابه اللغوي الأخرى. ومن الباحثين الذائعي الصيت، في هذا الميدان عالم البربريات الألماني "روسلر Rossler" الذي قال:

"إنّ اللوبية هي سامية في واقع أمرها، وإنه لا يمكن ولا يجوز فصلها عن الساميات"^٤
وقال:

"اللوبية ذات علاقة متينة مباشرة بالسامية"^٥

وقال:

"فالتصريف في اللوبية برهن على أنها جد سامية"^٦

١ - المصدر نفسه ص ١٢٢

٢ - انظر دراسته Langues chamito-semitiques الموجودة في الكتاب الذي أشرف عليه بمعية A.Meillet والذي عنوانه: Les

Langues Du monde. Paris 1924-P: 81 Essai comparatif sur le vocabulaire et Le phonitique, Chamito- Semitique. 1947

وانظر أيضاً كتابه:

٣ - Les Origines BerBÉres....Alger 1889

٤ - روسلر: مصدر سابق ص ١٢١

٥ - المصدر نفسه ص ١٢٥

٦ - المصدر نفسه ص ١٥٠

وقال قبله عالم البربريات والساميات "هنزشتما Hons Stumme" "من وجهة نظري أن البربرية أقرب بكثير إلى السامية من المصرية" ١

وهذا أيضاً ما أكدّه العالم الأنكليزي "فرنسيس وليام نيومان Frances Willam Neman" الذي يرى هو الآخر أن البربرية "سامية" وقد وصفه "روسلو" بأنه "عالم البربريات الشهير" ٢

وهناك غربيون آخرون ممن يرون هذا الرأي. ومن دارسينا "محمد المختار السوسي الشلحي" الذي أبرز أوجه الشبه بين العربية والشلحية، و"محمد الفاسي" و"عثمان سعدي الشاوي" اللذان أبرزوا نواحي مختلفة من أوجه الشبه بين العربية والبربرية.

وتصنيف البربرية ضمن مجموعة "اللغات السامية" يزعج بكل تأكيد الرافضين للانتماء العربي للمنطقة، إذ إنه جعل البربر لأول مرة أشقاء العرب وجعلهم منتسبين معاً إلى أصل واحد وأرومة واحدة. وكان هذا أول انتصار يسجل ضد المدرسة التاريخية الاستعمارية على صعيد المعرفة وأول خطوة في كنس المعلومات المغلوطة التي تحولت لدى المثقفين الغارقين في حمأة الاستعمار الثقافي إلى قنوات لا تدحض ٣

ولكن ماهي مقولة "السامية" هذه التي باتت مصطلحاً رائجاً على نطاق واسع؟ إنها في الحقيقة - ومثلها الحامية - مقولة ذات أصل خرافي من صنع الفكر اللاهوتي الاستعماري لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ولذا طعن فيها العديد من الباحثين. فالشعوب المسماة بهذا الاسم هي باتفاق الجميع من الجزيرة العربية، وأن لغاتها لم تفهم عند اكتشافها إلا بالرجوع إلى العربية التي تمثل حسب تقديرهم نسبة تقارب أو تزيد على ٨٠٪ من معجمها اللغوي. وبدل أن تسمى "شعوب الجزيرة العربية القديمة" أو "بالشعوب العربية القديمة" كما اقترح البعض، فإنهم يسمونها "بالسامية" مخالفين في ذلك القاعدة المتبعة في تسمية الأسر اللغوية بالاسم الذي يدل على مواطنها الأولى وهو الاسم الذي تحمله عادة أقدم لغاتها وأهمها. ولذا فإنه يتعين أن يحل مصطلح "عربي" و"عربية" مكان "سامي" و"سامية". وما أريد تأكيده بهذه المناسبة هو أن البربر ما هم إلا عرب قدامى. ءتوافدوا على المنطقة على مراحل حاملين معهم تنوعهم اللغوي وأنماطاً شتى من عاداتهم وثقافتهم الشرقية.

وهكذا يتضح لنا بعد هذا العرض - أن ما قاله السيد محمد حسين فنطر من أن اللغة البربرية لا تنتمي إلى اللغات السامية، قد استمدّه من أطروحات المدرسة الفرنسية ومما بات يشيحه أصحاب التوجه البربري الطائفي بالجزائر. ولكن لماذا صمت هذه المرة عن ذكر الحامية؟ كان ذلك منه اقتداء بمرسيل كوهين؟ أم أنه عزف عن ذكرها لسبب آخر؟.

وبدون أن نغرق في التخمينات، فالسيد فنطر وإن حرص في قولته السابقة على نفي انتساب البربر إلى المشرق، فإنه أيضاً كان يمهّد لذكر ابتكار جديد تفتقت عنه عبقرية المعهد الوطني للتراث. فقد توصل الأستاذان: عبد الرزاق كراكب وعلي مطيمط من دراستهما لما قبل التاريخ إلى معرفة

١ - المصدر نفسه ص ١٢٤

٢ - المصدر نفسه ص ١٢٢

٣ - نص مقتطف من : البربر عرب قدامى - ص ٨٤

٤ - هذه الأطروحة هي موضوع البحث الذي أنجزته بعنوان: من جذور المسألة القومية: البربر عرب قدامى. منشورات المجلس ٦٥ القومي للثقافة العربية - روما ١٩٩٣

الأصل البشري الذي انحدر منه البربر فقد قالوا:

"كما تثبت الدراسات أيضاً أن ما يسمّى بالعنصر "البربري" يحمل بعض علامات مستمدة من إنسان "مشتى العربي" غير أن التأثيرات القبصية تعتبر أكثر تواجداً. "يشكل إذا العنصر القبصي الأصل المباشر للإنسان اللوبي (أي البربري) وقد أضيف لهذه العناصر تأثيرات خارجية قادمة من الصحراء ومن بقية بلدان الأبيض المتوسط"^١

وإنسان "مشتى العربي" والإنسان القبصي هما من سلالات العصر الحجري الأعلى الأول كما يقول الأستاذان يعود إلى ١٨ ألف سنة قبل الميلاد. والثاني إلى الألف العاشر قبل الميلاد.

والأستاذان بالرغم من خطورة هذا الابتكار لا يقولان لنا ما هي "بعض العلامات!!" هذه الموروثة والتي ما يزال البربري الحالي يحملها عن ذئك الإنسانين: المشتوي والقبصي؟ ولا يقولان أيضاً كيف توصلنا إلى معرفتها من خلال ما ثبت لديهما من الدراسات؟ إنه في الحقيقة مجرد كلام ألقي به على عواهنه. ولا مندوحة في مثل هذه الحالة. من وصفه "بالتلفيق" الناجم عن تحكم النوازع الذاتية وتوجهاتها اللاعلمية. ونجد السيد فنطر يعيد علينا الرأي نفسه فيقول "الذين يحملون اليوم اسم "البربر" وسماهم القدماء "لوبيين أو أفريين" يبدو أنهم أحفاد المشتويين والقبصيين ... وانضاف إلى هذا العنصر المشتوي عناصر أخرى من الجنوب ومن الشمال عبر البحر والصحراء"^٢

وهنا نلاحظ أن الأساتذة الثلاثة قد اتفقوا تماماً حتى في مالم يعلنوا الاتفاق عليه. وليس هذا بالطبع من قبيل المصادفة، فهم لم يذكروا الجهة الشرقية ولو بصفتها احتمالاً وارداً خاصة وأنها تعدّ، في نظر الجميع، من أكبر مصادر الهجرة عبر التاريخ. وعدم احتفالهم بهذه الحقيقة ولا بما يماثلها من الحقائق الأخرى إنما هو بسبب عقيدة الرفض الموروثة وتصميمهم عليها.

وهكذا حظي البربر، من دون غيرهم، بسلسلة طويلة من النظريات لم يتوقف مبدعوها عن الابتكار والتجديد. فكانت هناك نظرية "الأصل الأوروبي" ونظرية "جنس البحر الأبيض المتوسط" و "النظرية الحامية" و "النظرية الأنثروبولوجية" التي يعاد إحيائها من داخل المعهد الوطني للتراث. وبما أنني اعتزم الكتابة في هذا الموضوع فأكتفي هنا بالإشارة إلى أن البحث في أصل البربر على أساس أنثروبولوجي قديم، وليس جديداً، ولم تهمله المدرسة الاستعمارية إلا أنها تخلت عنه لعدم جديته.

□□□

١ - حضارات ما قبل التاريخ - دار أنيف - الطبعة الثانية. تونس ١٩٩٣

٢ - أسلاف البربر: مصدر سابق ص ٢٩٦